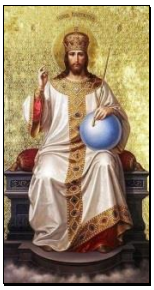

من
التراث الكنسي

معرفة الله

كأسمى هدف وأعظم فرح للحياة[١]

(٥)

(١) تعليم آباء الكنيسة عن الله الذي لا يمكن إدراكه:

يُشبِّه القدِّيس غريغوريوس النِّيصي موضوع صعوبة وعجز معرفة الله، بتلك العروس المذكورة في سِفْر نشيد الأنشاد والتي تمدُّ يديها نحو هذا الذي لا يمكن الإمساك به؛ إنَّها تمدُّ يديها لِمَن لا يمكن الوصول إليه.

وفيما يلي قولان للقدِّيس باسيليوس الكبير وديونيسيوس الأريوباغي حول أنَّه لا سبيل لمعرفة جوهر الله:

> [إذا أجبتُ أنَّني أعبد ما أَعرفه، فسيسألون على الفور: ما جوهر ذاك الذي هو موضوع العبادة؟ ثمَّ إذا اعترفتُ أنَّني أجهل الجوهر، فَهُم سينقلبون عليَّ مرَّةً أخرى ويقولون: إذن، أنتَ تعبد ما لا تعرف] (القدِّيس باسيليوس الكبير).
>
> [مَن رَأَى الله وفَهِم ما رآه، فهو لم يَرَه] (الأب ديونيسيوس الأريوباغي).

(٢) الكنيسة ليست ضد العقل:

إنَّ عدم المعرفة المُطلقة لله لا يعني أنَّ الكنيسة الأرثوذكسيَّة مُناهضة للفكر، فالمعرفة السلبيَّة apophatic ليست غير عقلانيَّة بل فوق العقلانيَّة. الوصيَّة العُظمى تحثُّنا على محبَّة الله: "بكلِّ فكرنا". الفكر أو العقل هو أسمى صفات الإنسان المخلوق على صورة الله. يُذَكِّرنا الكتاب المقدَّس والكنيسة أنَّ هناك حدودًا للعقل لا يستطيع أنْ يتجاوزها في معرفته لله. هناك الكثير مِن المجالات في الخليقة حيث يستطيع العقل، كما يجب عليه أيضًا، أنْ يجتهد ليمدَّنا بلمحاتٍ مِن فهم الحقيقة الإلهيَّة. لهذا كَتَب القدِّيس أفرام السّرياني St Ephrem في إحدى ترانيمه:

---

(١) عن كتاب بعنوان:

Anthony M. *Coniaris, Knowing God Life's Highest Purpose & Joy.*

[هناك استقصاء فكرى فِي الكنيسة بالفحص فِي ما أُعلِن، (لكن) لم يكن العقل مقصودًا به أنْ يتطفَّل فِي الأشياء الخفيَّة].

حقائق مثل الثالوث القدُّوس، الميلاد البتولي، والتجسُّد، على سبيل المثال؛ تتجاوز التَّفكير والعقل البَشَريَّيْن، ولا يمكن أنْ توضَع تحت فحص عقل الإنسان المحدود.

يتحدَّث الأب يوحنا خريسافجس Fr.John Chryssavgis فيقول:

[الحقيقة هي واقعٌ وليست بالفعل ما توصف به. اللاهوت والحياة الروحيَّة يحاولان ببساطة أنْ يُعبِّرا – أو على الأقل – أنْ يقترحا أو يفترضا ما لا يُنطَق به وما لا يوصف وما لا يُعَبَّر عنه. إنَّها لغة الصَّمت تُتَرجَم كقصيدة شعريَّة، كليتورجيًّا، وكتمجيد، وكحياة. هذا بالضَّبط ما جعل الطَّريقة الأبوفاتيَّة (السلبيَّة) ضروريَّة فِي اللاهوت والروحانيَّة الأرثوذكسيَّة. التَّقنية الفلسفيَّة السَّلبيَّة والمعروفة باللاهوت السَّلبي "أبوفاتيسيزم apophaticism"، ليست تعبيرًا عقليًّا صافيًا، ولكن بالضَّرورة طريقة للعبادة أمام الله الحيِّ الشَّخصاني، الذي هو – جوهريًّا ومِن الأساس – مقبولٌ ولا اعتراض عليه وغير مُدْرَك ولا مفهوم، كشخصٍ واهب الحياة بالتَّأكيد(٢)].

قال أحد المدرسيِّين ذات مرَّة، إنَّه بينما كانت المسيحيَّة الغربيَّة تحاول بالعقل أنْ تُحَلِّل وتُشَرِّح وتفهم الله، كانت المسيحيَّة الشَّرقيَّة تبحث فِي أنْ تُمَجِّد وتشكر وتُسَبِّح سرَّ الله المهوب. إنَّها لا تحاول أنْ تُشَرِّح سرَّ الله الذي لا يُسبَر غوره، ولكن أنْ تنحني ساجدة أمامه.

أَلَم يكتب القدِّيس بولس الرَّسول ويقول: «الآنَ أَعْرِفُ بَعْضَ الْمَعْرِفَةِ، لكِنْ حِينَئِذٍ سَأَعْرِفُ كَمَا عُرِفْتُ» (١كو ١٣: ١٢). المسيح فقط والرُّوح القدس هما اللذان يعرفان جوهر الله الآب: «... أُمُورُ اللهِ لَا يَعْرِفُهَا أَحَدٌ إِلَّا رُوحُ اللهِ» (١كو ٢: ١١).

يكتب القدِّيس باسيليوس الكبير عن معرفة الله، فيقول:

[الوظيفة الأساسيَّة لعقلنا هو أنْ نعرف الله بقدر ما يَقْدر الصغير جدًّا أنْ

---

(2) *Light Through Darkness*: the Orthodox Tradition. John Chryssavgis. Orbis Books. Maryknoll, NY, 2004.

يعرف الكبير غير المتناهي... يقول بولس الرَّسول: إنَّنا نعرفه بعض المعرفة، وسنعرفه بصورةٍ أكثر كمالًا في الحياة الآتية فقط، لأنَّه متى يأتي ما هو كامل، يَبْطل ما هو بعض (انظر: ١كو ١٣: ١٢)].

يُرنِّم القدِّيس غريغوريوس النيزينزي St. Gregory of Nazianus عن إيمانه في الله غير المُتناهي والذي لا يُسْبَر غوره، فيقول:

[أنتَ وحدكَ الذي لا يُنطَق به،
منذ الوقت الذي فيه خَلَقتَ كلَّ الأشياء، التي يمكننا أنْ نتكلَّم عنها.
أنتَ وحدك غير المعروف،
منذ الوقت الذي خلقتَ فيه كلَّ الأشياء، والتي يمكننا أنْ نعرفها.
جميع الأشياء تصيح وتُنادي عنك، تلكَ التي تتكلَّم وتلك التي لا تقدر على الكلام.
كلُّ الأشياء تُعَظِّمك وتُكَرِّمك، تلكَ التي تستطيع أنْ تُفَكِّر والتي لا تستطيع أنْ تُفكِّر.
لأنَّه لا يوجد إلَّا اشتياقٌ واحد، وأنينٌ واحد، الذي مِن جميع الأشياء نحوك ...
جميع الأشياء تُصَلِّي إليكَ كي تفهم خططك، وتُقدِّم لك تسبحةً صامتة.
فيكَ تقوم كلُّ الأشياء وفيك تثبت، أنتَ الواحد وحده،
وكلُّ الأشياء تركض بلا نهاية وعلى الدَّوام نحوك، أنتَ الذي هو غاية الكلِّ].

مِن المعلوم جيِّدًا أنَّ القدِّيس أوغسطينوس بينما كان يسير على شاطئ البحر كان يُفكِّر في الله، فرأى ولدًا يجلس بجانب البحر وهو يجرف ماءً مِن البحر بصَدَفَةٍ بحريَّة، ويصبُّها في حفرة حفرها في الرَّمل. هذا المنظر ألهمه لِيُفَكِّر أنَّه لا يوجد أيُّ تناسُب بين عقولنا الضَّحلة وبين عظمة الله. وكما إنَّه من المستحيل لعقلنا أنْ يحوي الله في عظمته الفائقة؛ هكذا كان لا يمكن أنْ نجرف ماء البحر بصَدَفَةٍ ونضعها في حفرةٍ صغيرة.

عندما نقول إنَّ الله غير محدود، فنحن نقصد بذلك أنَّه "أبوفاتيك" (لاهوت سلبي apophatic)، يعلو بما لا يُحَدُّ عن فهمنا. لا يمكن معرفة جوهر الله، وحتى لو كنَّا نظنُّ أنَّنا نعرف كلَّ شيء عنه، فلا يزال يوجد ما لا حدود له لنعرفه. لا يمكن وضع الله في صندوق، وفي كلِّ مرَّةٍ نظنُّ أنَّنا قد فهمناه، تأتي خبراتٌ جديدة لتنزع القناع عن الوثن الذي خلقناه بأنفسنا.